ضفة ثالثة
منبر ثقافي عربي

فريد الزاهي

نجا المهداوي كوريغرافيا الحروف الهوائية

3 ديسمبر 2016 تشكيل

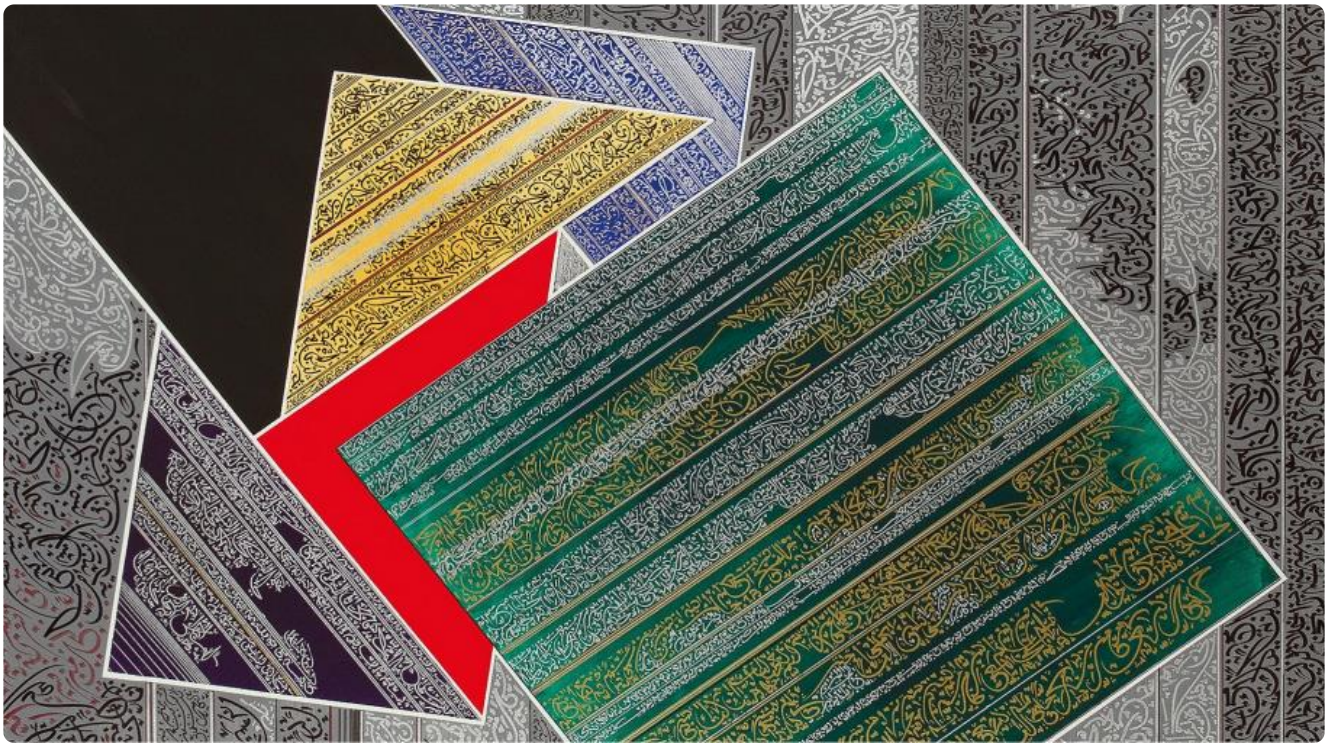

حين التقيته لأول مرة من سنوات في الشارقة كنت أعرف عن قرب أعماله ومسيره الغني. أهداني كتابًا جميلاً عن ألف ليلة وليلة مع الباحث الراحل جمال الدين بن الشيخ، نسج لوحاته وكأنها تصور إيقاع الحكاية. نجا المهداوي هو أحد الفنانين الأكثر إبداعية في مجال الحرف والعلامة، يرْقِص الحرف ويجعله مكونا إيقاعيا بالغ الحركية في اللوحة.
إبداعاته تطرح بعمق مسألة العلامة في الفن، من غير أن تنجرف وراء أسئلة الهوية السهلة. فالحرف لديه يكاد يتجرد من جسده كي ينصاع للعبة تأويلية تزج به في تشابكات لا هدف دلاليا لها، بقدر ما تتغيا نسج لعبة جمالية مدروسة سلفًا.

هذا الفنان (من مواليد 1937 بالجمهورية التونسية)، الذي تكوَّن بأكاديمية سانتا أندريا بروما ثم بمدرسة اللوفر،

أحس باكرًا أن التميُّز في مجال الممارسة التشكيلية يمرّ بانتهاج أسلوب شخصي. ففي الوقت الذي كان فيه شاكر حسن آل سعيد في بداية السبعينيات ينظّر للحروفية وللبعد الواحد، ويطرح أسئلة الهوية التشكيلية العربية، كان فنانون هنا وهناك يسعون إلى تأسيس تجربة عربية للحرف والعلامة تستغْوِر الأعماق الدفينة للذات العربية من غير أن تسقط في الزخرفية الساذجة وفي السطحية الدلالية لاستعمال الحرف. وإذا كان بعض الفنانين كضياء العزاوي وغيره قد أدمجوا الحروف في تجاربهم التشكيلية، تعبيرا منهم عن هجانة تشكيلية تمازج بين العلامة والمساحات اللونية والرسمية، فإن البعض الآخر كمحمد خدة وأحمد الشرقاوي وعبد الله الحريري وغيرهم، نحتوا الحرف والعلامة من غير إصرار على تحويله إلى الكتابة داخل اللوحة.

هكذا يتخذ الحرف موقعًا برزخيًا بين الكتابة والتشكيل. إنه يتحرر من الكتابة ومن فن الخط ليسبح في اللوحة مجرّدًا من أي مرجعية. وباعتباره تخطيطًا تشكيليًا نلفيه يسكن اللوحة كما لو كان مجرد لطخة أو تخطيطًا، متنصلًا بذلك من قواعد الخط والدلالة، جارفًا معه جسده فقط كي يستعلن به في وجوده الذاتي غير المرتهن بقدسية اللغة ولا برمزية الحروف كما صيغت في النص القرآني أو في النصوص الصوفية أو معاجم اللغة. يتملّص الحرف من الدلالة كي يستطيل ويتمدد. يمنح لنفسه جسدًا جديدًا يتهادى في اللوحة كما راقصة باليه تجر ذيل ثوبها الذي تتسربل فيه. وهو بذلك يتعالى على قواعده ومنطلقاته كي يغدو طيفًا للغة أو صورة للنَّفَس. وحين يتحدث البعض عن روحانية الـ"كتابة" التشكيلية لدى نجا المهداوي، فإنهم يمارسون ضربًا من القلب على الطريقة التي يتملص بها هذا التشكيل الخصوصي من روحانية اللغة، ليخلق روحانية من نوع آخر.

البعد الروحاني هنا لا ينبع من الحرف أبدًا ولا من أشكال استعماله وتخطيطه. فالحرف يجرد من روحانيته ومن هويته ليغدو موتيفًا تشكليًا، يصل أحيانًا حدّ التعبيرية كما نلاحظ في الكثير من أعمال نجا المهداوي، التي تتراقص فيها الحروف بشكل يخرق الهندسية التي اعتمدها الفنان طويلاً. من ثم يمكننا الحديث عن حركتين يبنيهما الفنان بالقوة نفسها وبالدقة عينها: التشكيل الهندسي والتشكيل الهوائي أو التعبيري. يعتمد الأول على بناء دقيق للفضاءات وفْقًا لتصورات تعتمد المواربة والعلوية. هكذا تتراصف الحروف تبعًا لمبدأ الميلان المفتوح على الأعلى. وفي هذا البناء، كما في البناء الدائري، يتبدى الطابع الروحاني المتعالي والميتافيزيقي الذي يسعى الفنان إلى صوغه وفقًا لتراتبية للأشكال الداخلية. في هذه العملية نلْفي الحروف تتوالد وتتمازج وتتراقص كما لو أنها تبحث عن سمائها الأخيرة. لكن، في اللعبة الدائرية فإن طابع الهرمونيا والتناغم يشتغل وفقًا لما تحتويه الدائرة من إمكانات تحيل أحيانًا إلى دائرية الكون والقدر.

أما البناء التعبيري فإنه يقوم على مبدأ التشابك العرضي الذي يبتغي خلق إيقاع داخلي بصري يحيل على مفهوم الطغْرة. وهكذا نجد أنفسنا أمام أعمال ينفلت فيها الفنان من بنيانه الصارم كي يترك للحروف أن تشكل موسيقاها الخاصة. غير أن هذه الحركية التي تشبه الوجْد الصوفي، تخضع هي بنفسها إلى محددات صارمة لا يمكن أن يخطئها نظرنا. وفي الحالين معًا، يكون الاختيار متوافقًا مع الصرامة الدقيقة التي يبتغي الفنان إرساءها، وفي الآن نفسه، مع الحركية المتأججة التي تخترق منظوره للتشكيل. بيد أن ثمة لوحات يتفاعل فيها الاختياران بحيث تنفجر الأشكال الهندسية الدائرية والمربّعة كي تخرج منها الحروف والرموز معلنة أنْ لا انغلاق في الدائرة، وأن القوة التي تحبل بها لا يمكن إلا أن تحولها إلى بركان يمور بالتحولات، بحيث لا يمكن إلا أن تنفجر يومًا لتنفتح على الخارج.

لا يشتغل نجا المهداوي على الحرف باعتباره صناعة، فهو ليس خطاطًا محترفًا، ولا باعتباره موتيفًا زخرفيًا وإن كان البعد الزخرفي باديًا في أعماله، بل باعتباره مكونًا تقنيًا وجماليًا وتشكيليًا: فهو اللمسة التي تحرم الخط من عيانيته المرجعية كي تمنحه وجودًا مغايرًا، وهو البصمة التي تأخذ في تلاوينها وتشاكلاتها وتعالقاتها مناحي تنبسط لها عين المشاهد وتستبطن جمالها، وهي المكون التشكيلي الذي يمنح لنفسه وجودًا قبْليًا وبعْديًا ويخلق الأشكال التجريدية وشبه المجسَّمة التي يبنيها الفنان قطعة قطعة. هذا البعد الثلاثي هو ما يمنح لتجربة المهداوي طابعًا بّلوريًا ومتعدد المكونات والأبعاد. بل هذا هو البعد المتعدد الذي جعله يخرج من مجال اللوحة كي ينسج لنفسه ولنا منفتحات ينزلق فيها نحو فيافي جديدة غير مطروقة، كالاشتغال على الطبول، ودخوله تجربة المنشأة الفنية (التي بيعت في سوثبيز

الدوحة قبل أكثر من سنة بما يعادل 300 ألف دولار)، وتزيين الأسطول القطري ببصمته المتفردة، والتعاون مع فنانين آخرين لإنجاز جداريات أو أعمال تدخل في تصميم المدينة. بيد أن تجربته جاوزت ذلك بكثير حين تعاون مع مصمم الأزياء البريطاني ماريوس شواب، ومع مصممي أزياء عرب شباب، كما حين حول أعماله إلى منحوتات تكاد فيها الحروف تنطق برقصاتها الناعمة.

تجربة نجا المهداوي لا تنحصر في مكوناتها حتى وهي تنشد لتقاليدها الداخلية، ولا تستكين لمنطق الحرف واللغة لأنها تقتلع الحرف من جذوره كي تعيد خلقه، غير أنها تمتح من علاقة الفن الإسلامي بالفضاء أفقه الحضاري والمتعدد كي تزج بنا في تجربة تصنع عالميتها من اشتغالها على موروثات الذات المحلية.